فريق موقع الآجري للتفريغ

سلسلة تفريغات "الثالثة"

(١١)

شَرحُ

كِتَــابِ الكَبَــــائِرِ وَتَبْيِينِ الْمَحَارِمِ

تَأْلِيف

الْحَافِظِ أَبِي عَبْدِآللهِ مُحَمَّدِ بنِ أَحْمَدَ بنِ عُثْمَانَ بنِ قَايْمَازَ الذَّهَبِيِّ

٦٦٣-٧٤٨ هـ

لفضيلة الشيخ

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

الكَبِيرَةُ العَاشِرَةُ: إِفْطَارُ رَمَضَانَ بِلَا عُذْرٍ وَلَا رُخْصَةٍ

النسخة الإلكترونية الأولى

www.ajurry.com

[أشرطة مفرغة]

بسم الله الرحمـٰن الرحيم

[المتن]

الكَبِيرَةُ العَاشِرَةُ

إِفْطَارُ رَمَضَانَ بِلَا عُذْرٍ

قَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «مَنْ أَفْطَرَ يَوْماً مِنْ رَمَضَانَ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ وَلَا رُخْصَةٍ لَمْ يَقْضِهِ صِيَامُ الدَّهْرِ وَلَوْ صَامَهُ مَا دَامَ لَمْ يَصُمْهُ».

[الشرح]

ثمّ ذكر –رحمه الله– هذه الكبيرة (إِفْطَارُ رَمَضَانَ بِلَا عُذْرٍ)، وصيام رمضان فريضة من فرائض الإسلام وركنٌ من أركانه، كتبه الله –تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ– على عباده المؤمنين لعلّهم يتّقون، فهو فريضة من فرائض الإسلام وركن من أركانه، ووقت صيام رمضان هو نهار رمضان، من طلوع الفجر إلى غروب الشّمس، هـٰذا وقت صيام هذه الفريضة في شهر رمضان، فإن جاء هـٰذا الوقت المعيّن والمحدّد شرعًا للصيام و لم يصم بلا عذر، و لم يصم دون عذر من مرض أو مانع أو عارض وإنّما تعمّد ترك الصّيام، فهل صيامه يُقبل لو صام بعد رمضان وهو قد تعمّد عدم الصّيام في الوقت المعيّن؟

أورد المصنّف هنا هذا الحديث ونبّه على أنّه لم يثبُت عن النّبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– «مَنْ أَفْطَرَ يَوْماً مِنْ رَمَضَانَ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ وَلَا رُخْصَةٍ لَمْ يَقْضِهِ صِيَامُ الدَّهْرِ وَلَوْ صَامَهُ»، والحديث كما نبّه المصنّف –رحمه الله– لم يثبُت؛ لكن بعض أهل العلم استدلّ على هـٰذا الحكم وأنّ صيامه لا يُقبل ويردّ عليه بعموم قوله –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»، أي مردودٌ على صاحبه غير مقبولٍ منه، فهـٰذه فريضة وقتها المعين لأدائها هو نهار رمضان، فمن تعمّد تركها في هـٰذا الوقت ثم أتى بها في وقتٍ آخر يكون قد أتى بها على خلاف ما ورد عن النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وعلى خلاف عمله، بخلاف من عرض له عارض المرض، أو كانت له رخصة كالسفر فهـٰذا حكمه واضح؛ لكن من يتعمد، وعلى كلّ حال وهذا يدلنا على خطورة هـٰذا الذنب وعظم هـٰذه الكبيرة: تعمد ترك صيام رمضان أو بعض أيامه في الوقت المعين والوقت المحدد الذي افترض الله –تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ– على المسلمين الصيام فيه.

[المتن]

وَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانِ كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ».

[الشرح]

ثم أخذ يسوق بعض النصوص التي فيها مكانة الصيام من الإسلام، ومنزلته من الدين، وما يترتب على المحافظة عليه وحفظه من الثمار والآثار، فذكر أولا: قول النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانِ كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ»، ففي هـٰذا الحديث من فوائد صيام شهر رمضان: أنه مكفّر للذنوب ما اجتنبت الكبائر؛ لأن الكبائر أو الكبيرة لا يُكفرها إلا التوبة؛ التوبة منها إلى الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-، وأما صغائر الذنوب واللّمم وما دون الكبائر فهـٰذه تُكفَّر بالمحافظة على الفرائض: الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، هـٰذه تكفر ما بينها من الصغائر التي تقع بينها، وأما الكبائر فلا يُكفّرها إلا التوبة، وقد ذكر بعض العلماء أن قوة هـٰذه الفرائض؛ قوة استمساك العبد بهذه الفرائض وقوة حفظه لها ومحافظته عليها قد يكون فيها تكفيرا للصغائر ويَلْقَى فيها قوة تُكفّر بعض الكبائر -كما أشار إلى هـٰذا ابن القيم ومن قبله شيخ الإسلام ابن تيمية وبعض أهل العلم- هي ليست مكفرة للكبائر؛ لأن في الحديث: «مَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ»؛ لكن قد تكون في هـٰذه المحافظة على الفرائض وهـٰذه الطاعات العظيمة وما يكون فيها من خشوع وخضوع وذل لله -جل وعلا- ما يكون به أيضا تكفير لبعض الكبائر، وهـٰذا شيخ الإسلام ابن تيمية انتصر له وتوسع في الكلام عليه في كتابه (الإيمان).

[المتن]

وَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ الْبَيْتِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

فيه أنّ الصيام؛ صيام رمضان من مباني الإسلام الخمسة، والإسلام بمثابة البناء، والبناء لا يقوم إلا على عماد كما قيل:

وَالْبَيْـــــتُ لاَ يُبْتَنَـــى إلاَّ بأَعْمِـــــدَةٍ	وَلاَ عِمَـــادَ إذَا لَـــمْ تُـــرْسَ أَوْتَـــادُ

وعماد الإسلام هـٰذه المباني الخمسة، فهي دعائم الإسلام التي عليها قيامه.

[المتن]

وَقَالَ حَمَّاد بْنِ زَيْدٍ، عَنْ عَمْرُو بْنِ مَالك الْبكْرِيّ، عَنْ أَبِي الْجَوْزَاء، عَنْ ابْنِ عَبَّاس –رّضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا– قال: "عُرَى الْإِسْلَام وَقَوَاعِدُ الدِّينِ ثَلَاثَةٌ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَالصَّلَاةُ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، فَمَنْ تَرَكَ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ فَهُوَ كَافِرٌ". وَتَجِدُهُ كَثِيرَ الْمَالِ وَلَمِ يحج وَلَمْ يُزَكِّ وَلَا يَحِلُّ دَمَهُ. هَذَا خَبَرٌ صَحِيحٌ.

[الشرح]

ثم أورد الذهبي –رحمه الله– هـٰذا الأثر الموقوف على ابن عباس –رَضِيَ اللهُ عَنْهُما– في عُرَى الإسلام، والعُرْوَة: ما يُتمسك به ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾[البقرة:٢٦٥]، العُرْوَة ما يُتمسك به، وعُرَى الإسلام: أي أصوله وقواعده –وكما مرّ– مبانيه: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ»، (عُرَى الْإِسْلَامِ وَقَوَاعِدُ الدِّينِ)، وقوله: (وَقَوَاعِدُ الدِّينِ) توضح قوله: (عُرَى الْإِسْلَامِ).

قال: (ثَلَاثَةٌ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَالصَّلَاةُ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ) كون هـٰذه الثلاثة من عُرَى الإسلام وقواعد الدين يشهد له الحديث الذي قبله «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ» وذكر الشهادتين والصلاة والصيام.

قال: (فَمَنْ تَرَكَ وَاحِدَةً مِنْهُا فَهُوَ كَافِرٌ)، قال: (وَتَجِدُهُ كَثِيرَ الْمَالِ وَلَمِ يحج وَلَمْ يُزَكِّ وَلَا يَحِلُّ دَمَهُ. هَذَا خَبَرٌ صَحِيحٌ.) يعني هـٰذا فيه التأكيد على عُرى الإسلام التي هي الشهادتين والصلاة والصوم؛ ولكن هـٰذا الأثر لم يثبت عن ابن عباس –رَضِيَ اللهُ عَنْهُما–، وللشيخ الألباني –رحمه الله– كلام على سنده وذِكْر لتخريجه في كتابه السلسلة الضعيفة برقم (٩٤).

[المتن]

وَعِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ مُقَرَّرٌ أَنَّ مَنْ تَرَكَ صَوْمَ شَهْرَ رَمَضَانَ بِلَا مَرَضٍ وَلَا عَرَضٍ؛ أَنَّهُ شَرٌّ مِن الزَّانِي، وَالْمَكَّاسِ، وَمُدْمِنَ الْخَمْرِ. بَلْ يَشُكُّونَ فِي إِسْلَامِهِ، وَيَظُنُّونَ بِهِ الزَّنْدَقَةَ وَالانْحِلَالَ.

[الشرح]

هذا متقرر مثل ما ذكر الإمام الذهبي -رحمه الله- عند المؤمنين، وتعظيم الصيام أمر مُرتكز في نفوس كثير من المؤمنين، حتى إن بعضهم يعني يحصل منه لا يفرط في الصيام، والصلاة التي هي أعظم من الصيام ولا قبول للصيام إلا بها لا يحافظ عليها ولا يعتني بها؛ لكن الصيام يعني أمره متمكن في قلوب المؤمنين حتى صار بهذه الصفة أن من ترك صوم رمضان بلا مرض ولا عرض أنه شر من الزاني والمَكّاس ومدمن الخمر؛ بل يشكون في إسلامه ويظنون أنه من الزنادقة، إذا تبين لهم أنه لا يصوم أو يُفطر أو رأوه يأكل في رمضان، ويرونه متهاونا في الصلاة ولا يقع فيهم هـٰذا الإحساس، مع أن شأن الصلاة أعظم وأكبر.

وعلى كل حال هـٰذه لفتة أشار إليها الذهبي -رحمه الله- في بيان واقع الصيام ومكانة الصيام في نفوس الناس.

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِهِ وَالْجَهْلَ فَلَا حَاجَةَ لِلهِ بِأَنْ يَدَعَ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ». صَحِيحٌ.

[الشرح]

ثم أورد -رحمه الله- هـٰذا الحديث ليبين أن الصيام لابد فيه أيضا من حفظ الصيام نفسه، والإتيان به على ما شرع الله -جلّ وعلا- وأمر عباده، وألّا يكون صيامه مجرد امتناع عن الطعام والشراب والجماع من طلوع الفجر إلى غروب الشمس؛ بل يحقق غاية الصيام ومقصده وهو تقوى الله -جل وعلا- بالبُعد عن الحرام والآثام والجهل وقول الزور والعمل بالزور. فجاء في الحديث: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِهِ وَالْجَهْلَ فَلَا حَاجَةَ لِلهِ بِأَنْ يَدَعَ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ»؛ بل ترك الطعام والشراب الغرض منه التقوى، فإذا لم يدع قول الزّور والجهل والعمل به ما [ظهر] عليه أثر الصيام، فنبه المصنف -رحمه الله- أن الصيام النافع والذي يكون به تكفير السيئات هو الذي يحقق للعبد تقوى الله -عزّ وجلّ-، وكل ما كان أبلغ ذلك في العبد كان ذلك أعظم أثرا وأكبر أجرا.

[المتن]

وَعَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «رَغِمَ أَنفُ امْرِئٍ أَدْرَكَ شَهْرَ رَمَضَانَ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ».

[الشرح]

ثم أيضا نبه على هـٰذه المسألة بهذا الحديث وهو قول النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «**رَغِمَ أَنفُ امْرِئٍ أَدْرَكَ شَهْرَ رَمَضَانَ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ**»؛ أي أن شهر رمضان موسم لمغفرة الذنوب، فيجدُر بالمسلم مع صيامه وحفظه لفريضة الصيام أن يستغل هذا الموسم للإقبال على الله –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ– والاستكثار من الطاعات والتوبة من الخطايا والسيئات لعله يكون من عتقاء الله –تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ– من النار، ولعله يكون ممن كتبت لهم المغفرة والرحمة، فشهر رمضان موسم عظيم مبارك للعتق من النار وغفران الذّنوب وفيه إقبال القلوب على الله –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ–، فإذا كان قلب الإنسان خاملا ضعيفا متوانيا لم يُقبِل على الله –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ– في هذا الشهر العظيم متى يقبل على الله؟، وإذا لم تحصل منه الإنابة والاستغفار والتوبة في هـٰذا الموسم الكبير و لم يتحرك قلبه متى عسى قلبه أن يتحرك؟ «**من أدرك رمضان ثم خرج فلم يغفر له فأبعده الله**» كما جاء في الحديث الآخر، وهنا قال: «**رَغِمَ أَنفُ امْرِئٍ**»؛ لأنه دخل في موسم عظيم للغفران وللعتق من النار والفوز برحمة الله –تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ– وهو سَادر في غيِّه مُعرِض عن طاعة ربه فيدخلُ موسم الغفران ويخرج و لم يتحرك مقبلا على طاعة الله –جلّ وعلا–.

❁❁❁❁